قابليات العناصر البشرية

للدكتور جواد علي

نشر الكاتب السياسي الفرنسي « كراف كوبينو » Graf Arthur Gobineau كتاباً في أربعة مجلدات ظهرت بين عامي ١٨٥٣ — ١٨٥٥ بعنوان « عدم مساواة العناصر البشرية » Essai sur L'inégalité des races humaines : فأثار على مؤلفه سخطاً شديداً ولا سيما من الهيئات الكاثوليكية وأنصار مبادئ الثورة الفرنسية ، كانت نتيجته طرد الرجل مراراً من السلك الدبلوماسي الذي كان ينتسب إليه .

وقد استقى كوبينو آراءه من مصدرين : مصدر التتبع والبحث الشخصي الذي قام به خلال تمثيله السياسي للحكومة الفرنسية في طهران والهند والبلقان ، ومصدر العلم الطبيعي الذي طغى إذ ذاك وتغلب على الطريقة القديمة باعتماده على التجارب والاختبارات . فقال باختلاف الأجناس وتباين العناصر البشرية كما هو الشأن في النباتات والحيوانات وقد كانت هذه نظرية قال بها العالم الألماني ألانترو بولوجي بلومنباخ Blumenbach (١٧٥٢ — ١٨٤٠) ، والعالم الفرنسي كوفييه Cuvier (١٧٦٩ — ١٨٣٢) . غير أنه زاد عليهما بنظريته في اختلاف القابليات البشرية والإنتاج المدني والثقافي ، فوصل إلى أن التاريخ البشري والحضارة البشرية نتيجة عقلية واحدة ، هي العقلية الآرية التي تشتمل الشعوب الأوربية والهندية الأوربية . ويخص من هذه الشعوب أيضاً الشعوب الجرمانية بأعلى القابليات في الاختراع والابتكار والسيادة والإرادة والزعامة في جميع نواحي الحياة[1] .

وكانت أول أرض أجابت هذه الدعوة هي الأرض الألمانية التي بدأت تنمو فيها الروح القومية ، وتظهر بأجلى مظاهرها ، ورسالة الفيلسوف الألماني فختــه Fichte بعثت فكرة القوميات في أوربا وهيأت الجو ولا شك لمثل هــذه الآراء . وكذلك فلسفة هيكل Hegel الذي قسم العالم إلى أدوار بدأ فيه بالدور الشرقي وانتهى بالدور الجرماني الذي هو في نظره خير الأدوار العالمية وأكملها . أضف إلى ذلك كتابات المؤرخ الألماني الشهير « ترايشكه » ، والكاتب الاجتماعي الوطني فردريش جان Friedrich Jahn وغيرهم ، والوحدة الألمانية التي قام بتأسيسها بسمارك ، وآراء نيتشه في القوة وتمجيده للحرب

ومن أشهر من تأثر بهذه النظرية الكاتب الإنكليزي الألماني H. St. Chamberlain شامبرلين ١٨٥٥ — ١٩٢٧ مؤسس الفلسفة النازية الأولى وأول فيلسوف يعتبره أتباع هتلر من بين صفوفهم . والرجل مع أنه انكليزي يختلف عقليــة عن العقلية الألمانية ، تأثر بالمحيط الألماني وهجر وطنه وترك لغته وغدا ألمانيا يخلص لألمانيا ويدافع عنها ويطعن على الإنكليز وقساوستهم في معاملة الألمان في الحرب العظمى . اتخذ هــذه النظرية قاعدة له في جميع أبحاثه ومقياساً يقيس به العالم طرًّا . وفي كتابه الشهير « أسس القرن التاسع عشر » الذي ظهر في سنة ١٨٩٩ Grundlagen des 19 Jahrhunderts يحمل أفكاره . وقد ترجم إلى لغات عديدة وطبع عشرات المرات

يرى في كتابه هذا أن الحضارة البشرية من أولها إلى آخرها نتيجة العمل الجرماني الآري . وكل حضارة ظهرت أو بقعة ازدهرت لا بد أن يكون للعنصر الآري ، وعلى الأخص الجرماني ، يدفيها . فهو في بحثه كالفاحص الكيميائي يحاول تحليل الحضارات ليجد العنصر المسبب وهو العنصر الجرماني الذي خص من بين الشعوب بميزة هداية البشرية والقيادة العالمية . حتى الكتابة أو الأرقام يرى أصلها من الجرمان ومن الجرمان انحدرت إلى الشرق . وعلى ذلك ففكرة كونها شرقية خطأ لا يغتفر . وكذلك آراء العلماء في أن الحضارة أصلها من الشرق لا يرى لها مبرراً ولا دليلاً . والشعوب الأخرى كلها مقلدة لم تنتج من عندها شيئاً . والحضارة العربية التي يراها ظهرت صدفة كسائر الحضارات السامية إن جاز تسميتها حضارة هي صورة ظاهرية لعمل آري مكتوم[1]

أثر كتاب شامبرلين في الأوساط الألمانية أثراً كبيراً ولا سيما في الأوساط السياسية منها والأوساط الشعبية والوطنية المتطرفة ، إلى درجة جعلتها تعتقد أن هنالك مهمة واجبة تقع على عاتق ألمانيا الجرمانية ، وهي مهمة قيادة العالم وحق الإشراف عليه ، مهمة تكاد تكون سماوية . وتحدثنا بعض المصادر أن القيصر الألماني كان معجباً جداً بهذا الكتاب أيما إعجاب ولا سيما بعقيدة الزعامة الألمانية والتبشير

(١) انظر كتابه في اللغة الفرنسية وكذلك كتابه في اللغة الألمانية بعنوان Graf Arthur Gobinaeu, Die Ungleichheit der menschen-rassen 1935

(١) انظر كتاب Die Grumdlagen des Neumehnten Jahr-hunderts ج ١ ص ٤٤٩ مادة ٣٧٩

بالدين الجديد ، على أساس القوة والسيادة التى هى من صفات الجرمان ، وأن الكاتب هذا وكذلك الفيلسوف النمساوى الاجتماعى Othmar Spann كانا من أهم أبطال الدعوة إلى الحرب قبل دخول ألمانيا الحرب بحجة أن الحرب أساس كل حضارة ، ولإثبات أن العنصر الجرمانى هو العنصر الفعال الذى تقع على عاتقه وحده أمور العالم وحقوق التصرف منذ آلاف السنين[1]

وفى سنة ١٨٩٤ أسست هنالك جمعية عرفت باسم « جمعية كوبينو » لتقوم بإتمام أبحاث هذا العالم . وقد رأس هذه الجمعية العالم ولمان Woltmann الذى ألف كتاباً عن عصر النهضة فى إيطاليا وأبى إلا أن يرجع أصل جميع علماء النهضة فى إيطاليا وأبطالها إلى أصل جرماني شمالى . يعرف هذا الكتاب بعنوان Die Germanen und die Renaissance in Italien, 1905 أعقبت هذه الجمعية جمعية أخرى عرفت باسم: « جمعية العناية بالأبحاث العنصرية » ألفها ألفريد بلوتنى Alfred Ploetny أخذت على عاتقها مهمة البحث العنصرى على أسس طبيعية تجريبية لا على الطريقة التاريخية الفلسفية . فعادوا إلى طريقة بلومنباخ Blumenbach وهى الاستعانة بأشكال قحف الرأس فى تقسيم العناصر البشرية ، وهيئة الجسم وتكوينه ، وتكوين علم خاص يتفرع من علم الأنتروبولوجى وهى الطريقة التى اتبعت اليوم فى ألمانيا بعد سيطرة هتلر عليها وخضوع الجامعة لإرادة النازى وآرائه

راجت عقيدة العنصرية خلال الحرب وبعد الحرب ولا سيما بعد استيلاء اليهود على معظم الكراسى فى ألمانيا وتشكيلها المجالس المحلية بعد ثورة شهر نوفمبر سنة ١٩١٨ إذ حصلوا على أغلبية كراسى الحكم . وهذا ما روج دعوة أنصار العقيدة العنصرية ، إذ تحولت إلى دعاية وطنية غايتها تطهير ألمانيا من العناصر الأجنبية بإعادة الأخلاق الجرمانية القديمة ، وهى السيادة والقوة ، هذه المبادئ التى تنافى المبادئ الأوربية الغربية الديمقراطية التى حملتها الحرب إلى ألمانيا بطريق اليهودية الحاكمة على ألمانيا ومحاربة كل فكرة تدعو إلى المساواة بين الشعوب والقابليات على حد سواء[2] . فظهر هنالك أساتذة وكتاب أمثال أدلف بارتلس Adolf Bartels و Rosenberg و Günther و Claus و Othmar Spann و Lenny و Scheidt وغيرهم استفادوا من الفرصة وحملوا على اليهودية والماسونية والشيوعية حملات شعواء موجهين نظر الألمان إلى هذه الناحية الحساسة لتمهيد الحكم للدولة الألمانية الثالثة وإعادة حلم الدولة الألمانية المقدسة

غير أن هنالك جماعة من الفلاسفة شعرت فى نفس الوقت بتدهور ألمانيا ووجوب إعادة مجدها . غير أنها رأت تحقيق ذلك عن طريق آخر وهو طريق الثقافة واللغة بتحويل العناصر الغريبة والقوميات إلى عنصر ألمانى واحد مستدلة على ذلك بأدلة أخرى ساخرة من قحف الرأس وتركيب الجسم مستدلة بالشعب الأمريكى الذى كوّن له قحف رأس جديد لا هو انكليزى ولا هو ألمانى ولا هولندى ولا فرنسى ، وباللغة التى يدافع عنها ويحاول نشرها مع أن أصله قد يكون من البلطيق أو السويد أو ألمانيا أو غيرها ، وكذلك باختلاف شكل الفلاح الألمانى وتركيبه عن سكان المدن الألمان ، وكذلك أصحاب المهن ، وكذلك الإنكليز الذين هم من عناصر مختلفة ، ومع ذلك ، فقد أصبح لهم قحف رأس مخصوص ، متخذ فى الأرض والمحيط عاملاً مهماً فى العنصرية والقابلية البشرية[1] . وغايتهم من ذلك غاية وطنية كذلك ، وهى ربط اليهود والألمان الذين فى الخارج ، وتجنسوا بجنسيات أجنبية عن طريق الثقافة واللغة ، وتكوين ألمانيا عظيمة بدلاً من تنفير هؤلاء ، وجلب السخط العالمى العام على الشعب الألمانى

غير أن استيلاء هتلر على زمام الحكم قضى على كل معارضة طبعاً للعنصرية ، وحرم أى كتاب يعارض العقيدة . وأخذ Günther يصنف للألمان العناصر الموجودة فى ألمانيا ، فتوصل إلى وجود خمسة عناصر أصلية وخمسة أخرى فرعية فى الدماء الألمانية ولم يتوصل إلا إلى نسبة تقدر باثنين فى المائة من الدماء الجرمانية الشمالية النقيّة . ولكن هنالك مع ذلك اختلافاً أيضاً فى التقسيم : هل تعتبر المظاهر الخارجية والتركيب العضوى للجسم أساس التقسيم ، أو العوامل الروحية والنفسية فقط أو كلاهما ؟ فظهرت آراء للأساتذة : Fischer و Lenny و Scheidt و Claus وغيرهم . وقد أعدت لأجل ذلك معاهد خاصة ومستشفيات

(١) انظر مجلة Die Gesellschaft لسنة ١٩٢٧ مجلد ١ ص ٩٨ وكذلك خطبة Othnar Spann فى جمعية الطلاب الألمان فى مدينة Brünn والتى طبعت فى سنة ١٩١٣ بعنوان Zur Sonyiologie und Philoso-phie des Krieges 1913

(٢) أنظر كتاب Georg Steinhausen المعروف بعنوان Der Po-litische niedergang Deutschlands 1927

(١) أنظر كتاب « سقوط الغرب » المشهور للفيلسوف شبرنكار Oswald Sprengler الذى أحدث أكبر ضجة فى أوربا يوم نشر فى عام ١٩١٨ بعنوان Der Untergang des abendlandes وكذلك كتاب Schmidt Roher المعنون mutter Sprache

ومختبرات تقوم بالتجارب المختلفة لتكوين علم جديد كسائر العلوم الأخرى إن لم نقل إنه أهمها

ويمكن أن نعتبر هذا العلم الذى تكون حديثاً قطب العلوم طراً فى ألمانيا الحالية ، فعليه أن يقسم العناصر البشرية إلى أصول وفروع ، وإلى أمم منتجة ذات قرابة مع الأمم الجرمانية وصلة ، وإلى أمم كتب عليها ألا تقوم فى التاريخ بأى دور أو حدث كالشعوب السامية والحامية وما يتفرع منها[1] . ووظيفة الجامعة الألمانية الحديثة أن تكيّف علومها وفق هذه العقيدة . ولا شك أن تلك مهمة صعبة شاقة ولا سيما فى العلوم العقلية منها فالتاريخ يجب أن يقلب رأساً على عقب ، والقرون الأولى ستبدأ بالجرمان وتاريخ أوربا ، ثم ينتقل إلى التاريخ الأشورى والبابلى والمصرى والحوادث التاريخية والحضارة البشرية يجب أن تغربل غربلة ليعثر على العنصر الآرى الفعال الذى هو بذرة كل حضارة . وتلك مهمة صعبة جداً كما يظهر ، لذلك لا فى أساتذة التاريخ خصوصاً المتقدمين منهم صعوبات فى هذا الفن ، أدت إلى إخراج معظم مدرسى التاريخ من الجامعات وإحلال عناصر جديدة من الشباب محلهم . وكذلك قل عن الفلسفة وعلم التربية والاجتماع والاقتصاد وغيرها بل حتى العلوم الطبيعية منها يجب إهمال أعمال وأسماء الأساتذة الذين ليست لهم صلة بالعرق الآرى أو نسب

أساس الحضارة العالية والمدنية وكل إنتاج بشرى عقلى أو مادى هو « الدماء » فعلى الشعب الآرى لذلك أن يحافظ على دمه من الاختلاط بالدماء الأخرى ، إذ متى اختلط بالدماء البعيدة حلت بالشعب الكارثة العظمى وذهبت السعادة الأبدية إلى الأبد وفسدت الروح والبدن[2] ، وسقط العنصر القوى إلى أسفل درجة من الضعف والاستسلام[3] . وعلى هذا وضعت قوانين « نورنبرك » فى منع أى آرى فى ألمانيا من الزواج بغير الآريين مهددة المخالف بأقسى العقوبات ، وكذلك فى طرد نصف الآرى ، أى الذى ينتسب إلى أب أو أم غير آرية ، أو ربع الآرى أى الذى ينحدر من جد أو جدة غير آرية — من الخدمة لفساد الدماء فى مثل هذه الأجسام

(١) أنظر إلى كتاب هتلر (كفاحى) Mein Kamff فى مواضع مختلفة ، وإلى كتب روزنبرك وكوبلز وكنتر وغيرهم

(٢) انظر كتاب (كفاحى) لهتلر ج ١ ص ٣٢١ وكتاب Werner Siebearth Hitlers Wolleus و Afred Rosenberg Der mythus ص ٢١ . كذلك Walther Gehl ج ٢ و ج ٣ و Günther . وغيره

(٣) انظر نفس المراجع وكتب الوطنية الاشتراكية المختصة بهذه الموضوعات

يرى معارضو هتلر والنازية فى عقيدة العنصرية هذه فكرة « الجبر » فما دام الدم هو العنصر المنتج للحضارة فلم إذاً هذه المدارس وتلك الجامعات ، ولم تلك النفقات الباهظة التى تنفق فى سبيل تربية الأحداث ؟ ومن الغريب أن هتلر ينعى على اليهودية قولها بنظرية الشعب المختار والنازية نفسها تقول بهذه الفكرة باختيار الشعب الجرمانى وحده بين الشعوب وتفضيله على الشعوب الأخرى بالإنتاج والعلم والابتكار

معالجة مشكلة الدماء تحل كل مشكلة ، ولذلك يجب تقوية الجسم والمحافظة على الدم فيه نقياً سالماً . ومتى حوفظ عليه حوفظ على الحضارة العالية والمدنية البشرية ، والسيادة الأوربية . الحضارة هى وليدة الدماء ، والقوة هى وليدة الدماء ، والجمال والفن كذلك

هذه هى فلسفة الوطنية الاشتراكية ، تجعل الروح وليدة المادة . ومن الغريب أيضاً أن الشيوعية التى يقاومها هتلر فى كتبه تجعل العوامل الروحية مصدرها المادة ، مع أن هتلر وروز نبرك يعتمدان فى آرائهما العالية ووجهة نظرهما الفلسفية على الروح

بين هذه النظرة وبين مبدأ الأوجينيك Eugénetik Eugénik قرابة عظيمة . والوطنية الاشتراكية فى نظرتها العنصرية مدينة لهذا المبدأ أيضاً . القواعد التى وضعها العالم الفرنسى Francis Galton (١٨٢٠ — ١٩١١) والتى أطلق عليها الاسم المتقدم لأجل تكوين أجيال صالحة بمعالجة الجسم بقواعد عرفت « بقواعد كالتون » Galtonische regel ، والتى تعتمد على الوراثة فى الدرجة الأولى ونظريات mendll (١٨٢٢ — ١٨٨٤) و Gre gor mendl و Jean Lamark (١٧٤٤ — ١٨٢٩) وداروين .

أراد نيتشه الفيلسوف الألمانى فى زمانه إصلاح الأخلاق بالإصلاح العضوى لتقوية الأجسام وتقوية العقل والإنتاج بالطرق المباشرة كالأكل والرياضة لا بالنظريات الأخلاقية والأدبية العقيمة . وأراد فيوربراخ Feurbach إصلاح الإنسان بالأكل وطرد الدين . وأرادت الشيوعية إصلاح المجتمع بتقويض الأنظمة القديمة ، وأراد هتلر بعث الجرمان والسيادة على البشر بتقوية الدماء . وكل له فى هذا العالم مذهب ورأى ، ولكل غاية ومثال . ولكن لكل شخص أن يقرأ ويرى كما يرى فى دور الصور المتحركة دون أن يسخر من كل رأى أو يضحك من كل فكرة .

مراد على
خريج جامعة هامبرج بألمانيا